

١٩

سَاءَ نِسَاءِ النَّبِيِّ

أَمْ حَبِيبَتِي أَفَلَمْ تَرِي أَنَّ الْجَنَّةَ سَفِينَاكَ

الجزء الثاني

مَكَاتِهَا بَيْنَ نِسَاءِ النَّبِيِّ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد  
بريشة : أ. عبد الشافي سيد  
إشراف : أ. حمدي مصطفى

لِلدَّاعِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِسْلَامِ

آن الأوان لكى تهاجر رملة بنت أبي سفيان والمسلمون إلى المدينة المنورة ، حيث كان المسلمون هناك يحتفلون بنصرهم المؤزر على اليهود فى غزوة خيبر ، وودع النجاشي المسلمين الذين عاشوا فى كنفه وتحت رعايته ، ينعمون بالأمن والإطمئنان ، وأوصاهم أن يقرئوا الرسول ﷺ السلام .

واستقبلت المدينة المنورة خبر رملة والمهاجرين من الحبشة بالبشر والترحاب ، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً على هؤلاء المهاجرين ، وما إن رآه الرسول ﷺ حتى قام إليه بنفسه واحتضنه ثم قبل ما بين عينيه وقال فى سعادة :  
- واللّسه ما أدري بأيهما أفرح ؟ أفتح خيبر ؟ أم بقُدوم جعفر ومن معه من المسلمين .

وضم الرسول ﷺ رملة بنت أبي سفيان إلى نسائه ، وأخذت تبوأ مكانها فى حياة النبي ﷺ يوماً بعد يوم ، فهى امرأة جاهدت فى سبيل الله ، وصبرت على الابتلاء ، فكافأها الله ( تعالى ) بالزواج من رسول الله ﷺ .

كانت رَمْلَةٌ بنتُ أَبِي سَفْيَانَ سَعِيدَةً بِزَوْجِهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ،  
واعتبرتُ هي وأهلُها هذا الزَّواجَ تَشْرِيفًا لَهَا وَلِقَوْمِهَا ،  
ورفعًا لأَقْدَارِهِمْ ، غيرَ أَنَّ أَهَمَّ ما كانَ يورِّقُها هو كُفْرُ أَبِيها  
الذي ربَّأها وأنفقَ عليها ، وتصدَّيه لزوجها ﷺ بكلِّ  
ما أُوتِيَ من قُوَّةٍ .



وتمت رملة أن تحدث المعجزة ، ويسلم أبوها ، وينضم  
إلى كتيبة الإيمان .. وهل ذلك على الله بعيد ؟ ألم يسلم  
من قبل عمر بن الخطاب وكان من أشد الناس عداً للرسول ﷺ ؟  
فلم لا يفتح أبوها قلبه ، ويصغي لصوت الحق ؟

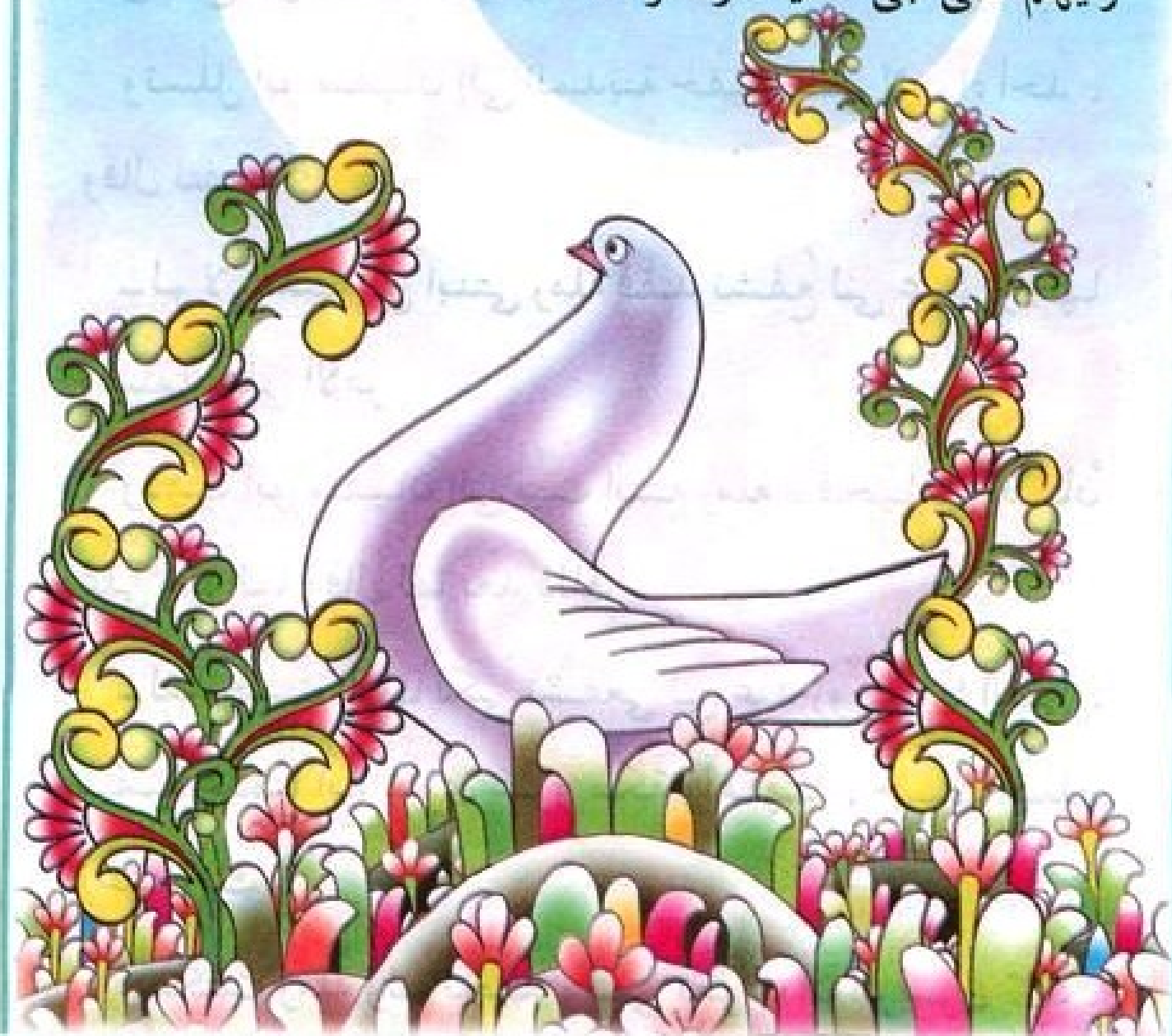
ولعل رملة بنت أبي سفيان كانت ترجو أن تكون  
في مكانة عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن  
الخطاب ، بعد أن صارت زوجة للنبي ﷺ وأماً للمؤمنين ،  
ولكن أنى لها ذلك ؟ وأبو بكر وعمر قد بشرهما  
رسول الله ﷺ بالجنة ، أما أبوها فهو ما يزال على  
عناده وكفره !

ومضت الأيام مُسرعة ، ورملة تعيش في بيت النبوة تنعم  
برؤية النبي ﷺ وتحظى بقربه ، وكانت تدرك بحسها  
ووعياها أن المواجهة بين الحق والباطل آتية لا ريب فيها ،  
وأن زوجها ﷺ سيخوض حرباً لا هراة فيها ضد أبيها  
والمشركين معه من أهل مكة .

وأكدت الأيام صدق حدس رملة (رضي الله عنها) ، فقد



أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالِاسْتِعْدَادِ لِفَتْحِ مَكَّةَ ، بَعْدَ أَنْ  
نَقَضَ الْمُشْرِكُونَ الْعَهْدَ الَّذِي وَقَعُوهُ مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ .  
وَعَلِمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيَغْزُوهُمْ فِي جَيْشٍ  
كَبِيرٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يُرْسِلُوا أَحَدَهُمْ إِلَيْهِ  
لِكَيْ يَفَاوِضَهُ وَيَطْلُبَ مِنْهُ الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنْهُمْ ، وَاسْتَقَرَّ  
رَأْيُهُمْ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ وَقَالُوا لَهُ :



- أَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ قَرَيْشٍ ، وَابْنُكَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ  
أَجْدَرَنَا بِمِنَاقِشَةِ مُحَمَّدٍ وَالتَّفَاوُضِ مَعَهُ مِنْ أَجْلِ تَمْدِيدِ الصُّلْحِ .  
وَوَافَقَ أَبُو سُفْيَانَ عَلَى الذَّهَابِ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى  
مَضَضٍ ، فَقَدْ كَانَ لَا يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ  
وَيَخَاطِبُهُ بَعْدَ هَذَا الصَّرَاعِ الطَّوِيلِ وَالْحُرُوبِ الضَّرُوسِ ،  
الَّتِي أَجَّجَ أَبُو سُفْيَانَ نِيرَانَهَا .  
وَتَسَلَّلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ خَفِيَّةً حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ ،  
وَقَالَ لِنَفْسِهِ :

- لَمْ لَا أَذْهَبُ إِلَى ابْنَتِي رَمْلَةَ فَقَدْ تَشَفَّعَ لِي عِنْدَ زَوْجِهَا  
وَتُسَهَّلَ عَلَيَّ الْأَمْرُ .

وَذَهَبَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى بَيْتِ ابْنَتِهِ رَمْلَةَ ، فَحَيَّاها وَاطْمَأَنَّ  
عَلَى أَحْوَالِهَا وَقَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

- لَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ لِكَيْ تَشْفَعِيَ لِي عِنْدَ زَوْجِكَ يَا ابْنَتِي ،  
فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَنْوِي غَزْوَ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا ، حَيْثُ أَهْلُكَ  
وَعَشِيرَتُكَ !

فَسَكَتَ رَمْلَةُ وَلَمْ تُجِبْهُ ، فَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ ،



فأراد أن يجلس عليه ، لكن ابنته أسرعَتْ وطوت الفراش قبل أن يصل إليه .

وتعجب أبو سفيان من صنيع ابنته ، وسألها في دهشة :  
- يا ابنتي لم طويت الفراش عني ؟ هل رغبت بهذا الفراش عني ، أو أن هذا الفراش لا يليق بأبيك ؟  
فقلت رملة :

- ورب محمد ، ما رفعت هذا الفراش ، إلا لأنك رجل مشرك بالله ، فكيف آمنك على فراش جلس عليه رسول الله ﷺ ؟

وأحس أبو سفيان بالحزن يعتصر قلبه فقال لابنته :  
- يا بنية ، لقد أصابك بعدى شر .  
فقلت في ثقة :

- بل أنت الذي أصابك الشر كله بكفرك بالله !  
وخرج أبو سفيان من عندها حزينا حتى أتى النبي ﷺ فطلب منه أن يزيد مدة الهدنة ، فلم يرد عليه الرسول ﷺ بما يريحه .

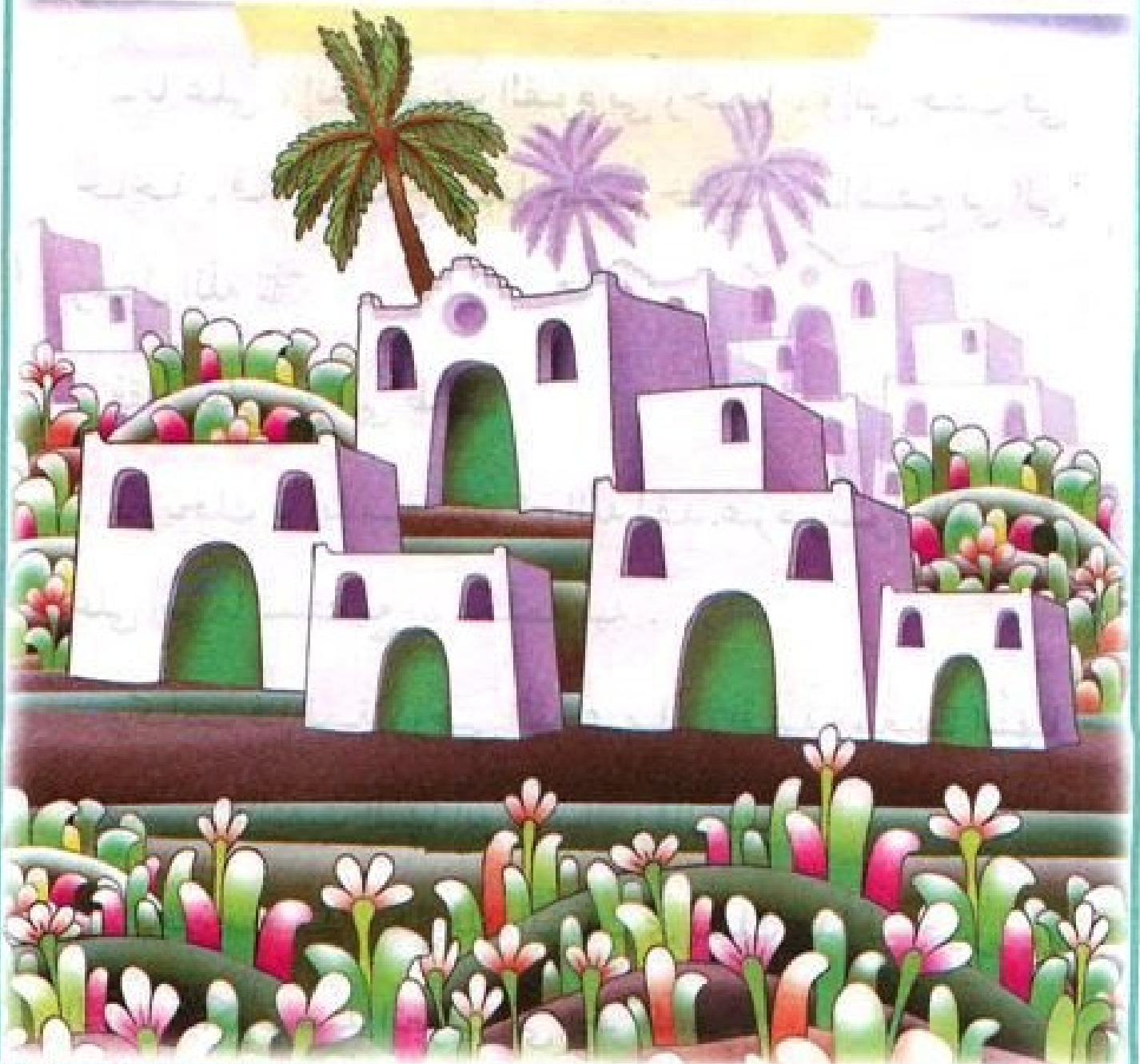


فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصديق فتوسل به لكي  
يكلم رسول الله ﷺ ، لكن أبا بكر رفض ذلك وقال :

— ما أنا بفاعل .

ولما يئس أبو سفيان من أبي بكر ذهب إلى عمر بن

الخطاب فكلّمه ، لكن عمر قال له :



- أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

( أى لو لم أجد إلا الحصى أو التراب لجاهدتكم به ) .

وانطلق أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب ، فدخل عليه وقال له :

- يا علي ، إنك أقرب القوم بي رحماً ، وإنى جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى رسول الله ﷺ .

فقال علي بن أبي طالب :

- وبحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

وكانت فاطمة (رضى الله عنها) واقفةً ومعها ابنها الحسن ، فالتفت إليها أبو سفيان وقال لها :

- يا بنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ :

- وَاللَّهِ ، مَا بَلَغَ بَنِي هَذَا أَنْ يُجِيرَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَا يُجِيرُ

أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

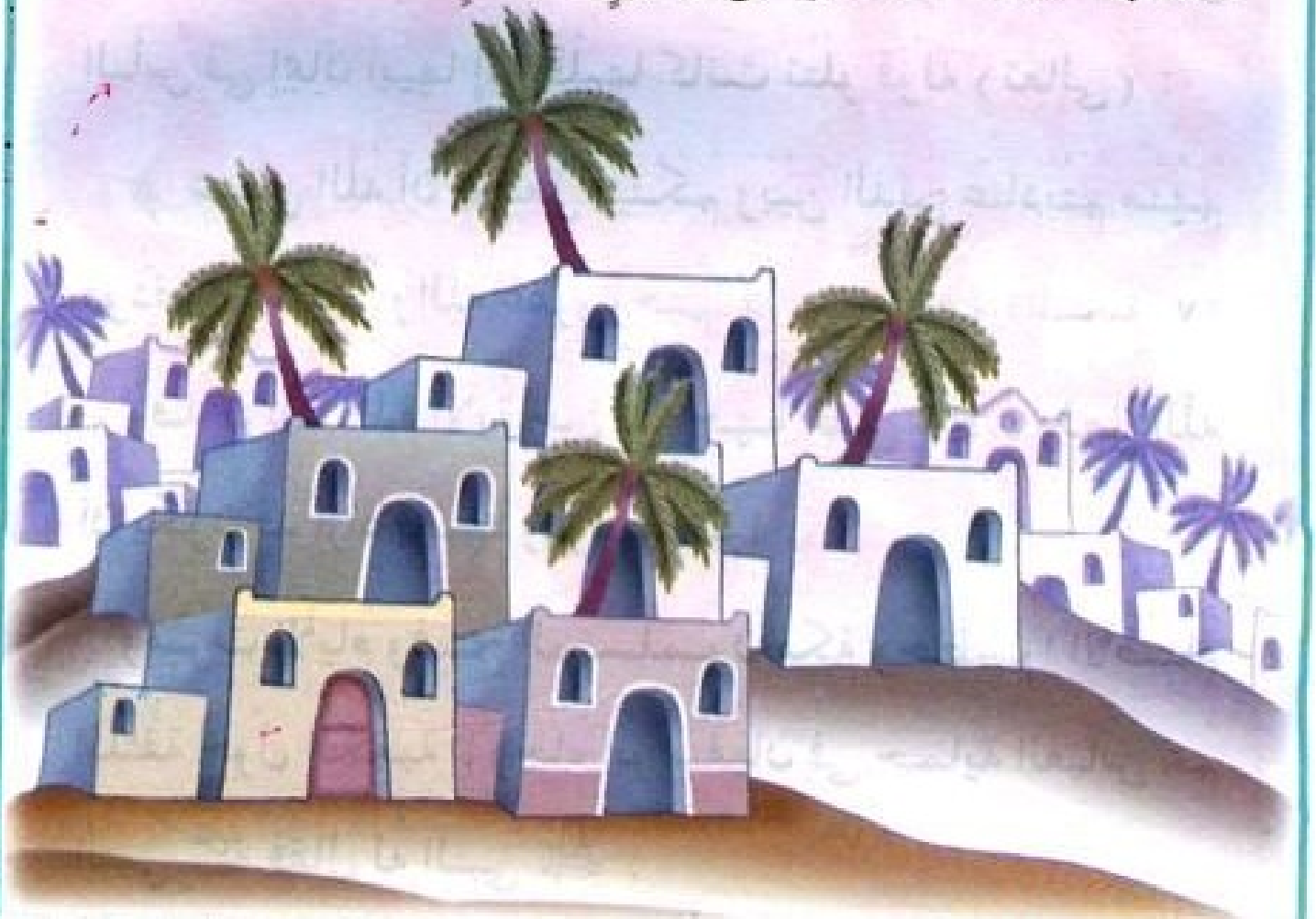
وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ الْأَمْرَ جَدًّا لَا هَزْلَ فِيهِ ، طَلَبَ مِنْ

عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ النَّصِيحَةَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالْعُودَةِ مِنْ حَيْثُ

جَاءَ ، وَأَنْ يَنْتَظِرَ مَا سَوْفَ تَسْفِرُ عَنْهُ الْأَيَّامُ الْمُقْبِلَةُ ، فَعَادَ

أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ فَشِلَ فِي مُحَاوَلَتِهِ ، وَأَخْبَرَ أَهْلَ

مَكَّةَ بِمَا حَدَثَ ، فَعَاشُوا فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ .



وَعَادَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَيْتِ زَوْجَتِهِ رَمْلَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، فَأَعْلَمَهَا بِأَمْرِ أَبِيهَا وَمَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ ، فَدَعَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ ، ثُمَّ قَصَّتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا صَنَعَتْهُ مَعَ أَبِيهَا حِينَ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَابْتَسَمَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَرَضِيَ بِمَا صَنَعَتْهُ ، وَزَادَتْ مَكَانَتَهَا فِي قَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ وَفِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

وَبَقِيَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أَبَاهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ، وَكَلَّمَا تَسَلَّلَ الْيَأْسُ فِي إِيْمَانِ أَبِيهَا إِلَى قَلْبِهَا كَانَتْ تَتْلُو قَوْلَهُ (تَعَالَى) :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ٧]

وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ حِينَ تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَرَادَ بِأَبِيهَا وَقَوْمِهَا خَيْرًا .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَفَتَحَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ وَحَطَّمُوا الْأَصْنَامَ الْمُتَلَفَّةَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، وَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ فِي حِمَايَةِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ :



– وَيَحْكُ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

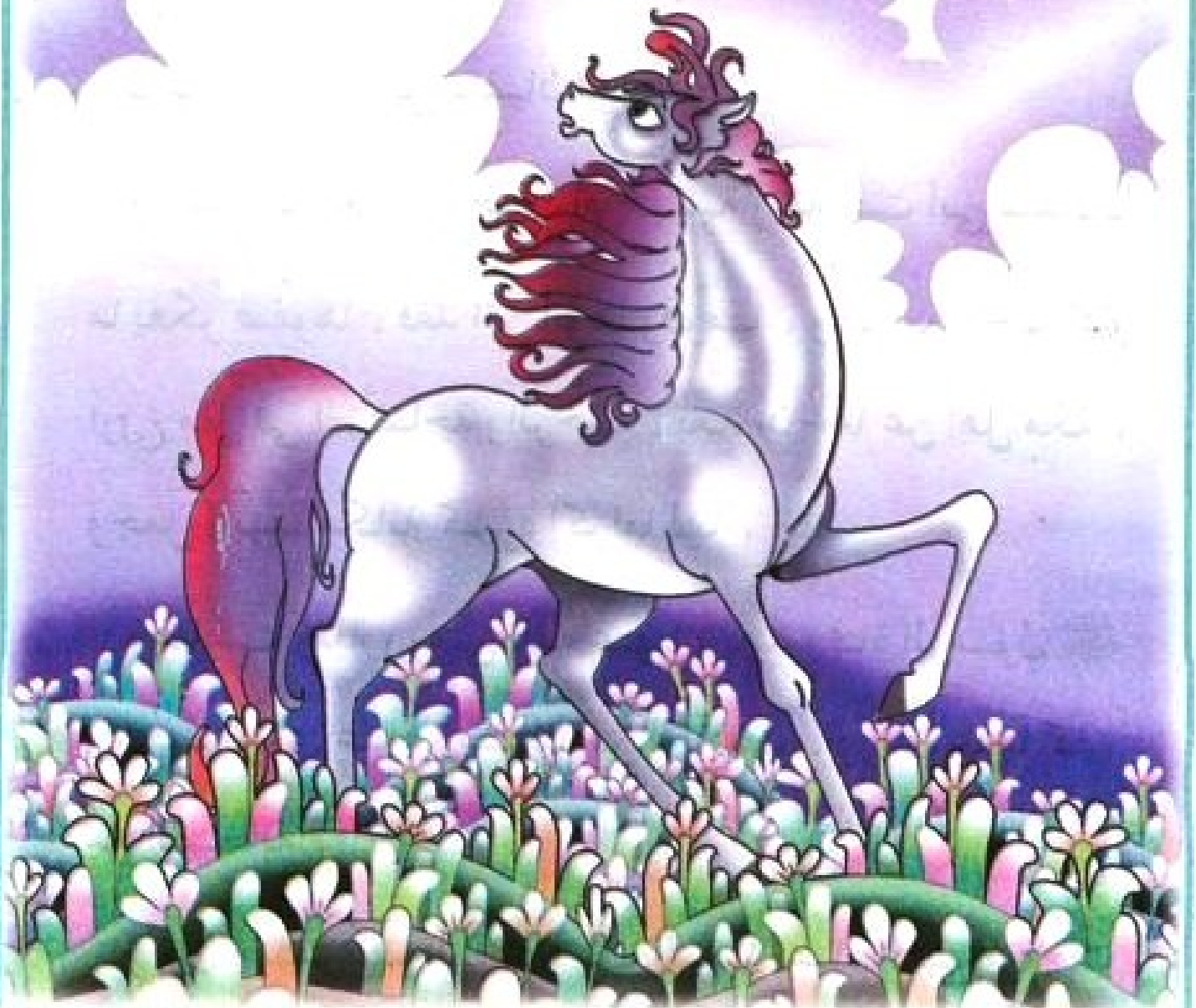
اللَّهُ ؟

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

– بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ ! وَاللَّهِ

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرُهُ إِذْنٌ لَأَغْنَى عَنِّي شَيْئًا ،

وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ !



فقال له النبي ﷺ :

— ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنني

رسول الله ؟

لكن أبا سفيان تردد في الإيمان برسالة محمد ﷺ في

أول الأمر ثم مال به أن شرح الله صدره للإسلام ، وأراد

الرسول ﷺ أن يتألف قلبه فقال :

— من دخل دار أبي سفيان فهو آمن !

وعندئذ لم يعد في حياة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان

ما يعكر صفوها ، فقد آمن أبوها وقومها ، وضرب زوجها ﷺ

أروع مثل في السماحة والرحمة ، بعد أن عفا عن أهل مكة ،

وجعل لأبيها مكانة كبيرة إكراماً لها .

وعاشت رملة (رضي الله عنها) بعد وفاة الرسول ﷺ

وراحت تروى عنه ما سمعته من أحاديث ، وروى عنها كثير

من الصحابة .

وحين حضرتها الوفاة دعت إليها نساء النبي وراحت

تَطْلُبُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَنْ تُسَامِحَهَا لِكَيْ تَلْقَى اللَّهَ نَقِيَّةً  
خَالِيَةً مِنَ الذُّنُوبِ فَقَالَتْ لِعَائِشَةَ :

— قَدْ كَانَ يَكُونُ بَيْنَنَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الضَّرَائِرِ فَغَفَرَ اللَّهُ  
لِي وَلَكَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

